اثر القرائن النحوية في دلالة الاستفهام القرآني

د.صباح عيدان حمود

كلية التربية – جامعة ميسان

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله ومن والاهم إلى يوم الدين.

اعتمد كثير من الباحثين فكرة عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) في نظريته الشهيرة(النظم)، وبدأوا يبوبون للنظام النحوي الجديد من جهة الترتيب والفصل بين أجزاء التراكيب؛ لإعادة صياغته بعيداً عن العامل النحوي والعلامة الإعرابية، التي كانت لزمانٍ طويلٍ مهيمنة على المعاني الوظيفية عند النحاة. وكان عبد القاهر قدضغط أفكاره في عبارةيبيّنفيها معنى(التعليق)، الذي يمثل النظام النحوي عند المحدثين[١]، إذ يقول:((واعلم انك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعتريه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يُعَلّق بعضُها على بعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على احد من الناس، و إذا كان كذلك، فحريّ بنا أن ننظر إلىالتعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب صاحبتها .... أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى يصير نفياً أو استفهاماً،فتدخل عليه الحروف الموضوعة له))[٢].

فقد أوضح عبد القاهر مدى وجود كثيرٍ من العلاقات بين المفردات داخل التركيب، وهذه العلاقات سماها التعليق الذي يعني:أن التركيب في الجملة لابد أن يكون متوخى فيه معاني النحو الصحيح؛ ليصل إلى المعنى لمراد في النفس((فإن الكلمة تُرتّب في النطق؛ بسبب ترتّب معانيها في النفس))[٣]. وهو هنا وإن أراد أن يثبت رأيه العقائدي (الأشعري) في فهم حقيقة الكلام النفسي؛ إلا أنه بيّن علاقة المفردات مع دلالاتها عند التركيب.

ولما كان الاستفهام أسلوباً في تركيب الجمل. وربما كان نصاًأدبياً أُختزل بأسلوب معين في نفس المتكلم؛ ليثير عند المتلقي شيئاً جديداً اختفى عنه، فهوتركيب بأدوات خاصة يعطي معاني جديدة مضافة إلى معناه الأصلي(طلب الفهم)، ومن هنا كانت العلاقة واضحة بين التراكيب التي توضع إثباتاً أو نفياً بصيغة الإخبار، فحين يُستفهم عنها بأداةٍ من أدواته الخاصة، تحتاج إلىإظهار فاعلية إثبات صيغة الجملة الاستفهامية لمعانٍ جديدة بوساطة القرائن النحوية المختلفة؛لتكشف عن معنى جديد، يثيره المستفهم في نفس المتلقي قراءة أو سمعاً. فجاء هذا البحث لتسليط الضوء على أهمية القرينة بمختلف أقسامها، لفظية كانت أو معنوية أو سياقية

أو مقامية، ومدى ثباتها وتغيّرها وتضافرها في بيان المعاني المختلفة التي ترافق أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم؛إذ خرجت في اغلبها – إذا كانت على لسان الباري ﷻ – عن المعنى المستعمل للاستفهام (طلب الفهم)، بل هي لغرض توضيحي للمخاطبين، فهوتعبير عن المعاني المتعددة بصيغ مختلفة تدلّ على إبداع المبدع وبلاغة النص القرآني وفصاحته التي تمثل سرّإعجازه في إثارة المعاني عند المتلقي، إذ تدفعه للتفتيش عن جواب،أو للتنبيه عن غفلة أونسيان يثيره الأسلوب الاستفهامي.وهذا يقتضي منّا التعرف على حقيقة الاستفهام القرآني في تمهيدٍ مختصر.

الاستفهام في القرآن الكريم: إذا كان الاستفهام هو: طلب الفهم[٤]،والفهم صورة ذهنية وعملية إجرائية، تتعلق أحياناً بمفرد، أو بشيء أو غيرهما، وتتعلق أحياناً بنسبة، أو بحكم من الأحكام[٥]. فهو إذن يبحث عن مفهوم، و هذا المفهوم هو المعنى؛لذا كان هذا الأسلوب أو(النمط النحوي) – إن صحتتسميته بذلك– يستدعي شيئين مهمين، هما: الأداة والتركيب، إذ يشكلان معاً وبمعونة تنغيم صوتي خاص– إذا كان الكلام منطوقاً – وبعلامات ترقيمية –إذا كان الكلام مكتوباً –؛ لتتضافر جميع هذه العلامات الصوتية والكتابية،ونظام التركيب مع الأداةالخاصة بأسلوب الاستفهام، أو المحوّلة من غيره له؛ للوصول إلى طلب الفهم هذا. وهو معنى الشيء المفرد، أو النسبة أو الحكم، الذي غالباً ما يكون مجهولاً عند قائل النص،أو المستفهِم أو السائل.أو معروفاً لديه، ولكنّه يريد إفهام غيره، فيكون التعبير عنه بالاستفهام مجازاً.

وعلى هذا يكون الاستفهام في القرآن الكريم من النوع الثاني؛ لأنه كلام الخالقِ العالمِ بكلّ شيء، فلا يستفهم لجهل – جلّ وعلا– فنستطيع القول أن كلَّ الاستفهام في القرآن الكريم إذا كان على لسان الباري إنما هو لغرض توضيحي للمخاطبين، وهو تعبير عن المعاني المتعددة بصيغ مختلفة، تدلّعلى إبداع المبدع وبلاغة النص القرآني وفصاحته، التي تمثل سرّإعجازه في إثارة المعاني الجديدة في نفس المتلقي، وتأتي هذه الإثارة بطريقة ألفات النفس الإنسانية عن طريق قلب التقليد البلاغي في استعمال الاستفهام بمعناه الاصطلاحي، إلى معنى جديد يجرّ متلقيالخطاب إلىالتفتيش عنجواب لهذا الاستفهام، أوتنبيهه عن غفلة كان فيها،أو نسيان اعتراه؛ يثيره النص القرآني بوساطة الأسلوب الاستفهامي. فهو ليس طلباً للفهم حقيقة عند المتكلم، بل تفهيماً للمخاطب وتنبيهاً له إلى مواطن الغفلة، أو لإثارة نفسية معينة قد تقتضي تكرار الاستفهام في خطاب واحد، كما حدث في سورة الرحمن مثلاً، وذلك عند تكرار قوله تعالى: **(فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** أحدى وثلاثين مرة، فكلّ عبارة استفهامٍ توحي للمتلقي نوعاً من الدلالة، تتراوح بين الزجر والتوبيخ واللوم، علاوة على ما تثيره عملية التكرار هذه من جمالية صوتية تجعل القارئ دائم الحضور في الخطاب القرآني.

وبهذا يكون أسلوب جملة الاستفهام – زيادة إلى المعنى الطلبي الذي يحققه–مكتنزاً معانيأخرى، توحي بها دلالات تركيبية وأسلوبية و مقامية،تُقرأ من خلال تركيب الجملة، ومن تلك المعاني مثلاً:

الإنكار كما في قوله تعالى:**(قُلْ ءآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)** يونس :٥٩.

والتوبيخ في قوله تعالى:(**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**)المائدة :١١٦. ففي ظاهر اللفظ توبيخ لعيسى (عليه السلام) ولقومه في المعنى؛ لأن الله تعالى علمأن عيسى لم يقل ذلك، ولكنهقالها في حضرة قومه؛ ليوبّخهم ويكذّبهم فيما قالوه.فالاستفهامهناكالاستفهامفيقولهتعالىللرسل:(**مَاذَاأُجِبْتُمْ؟**)(المائدة:١٠٩)،واللهيعلمأنّعيسىلميقلذلكولكنأُريدإعلانكذبمنكفر ومنالنصارى .

ومنها الاسترشاد أي طلب الرشد كما في قوله تعالى:(**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**)البقرة :٣٠؛وذلك لأنهم استرشدوا ليعلموا وجه المصلحة،وقيل: هي تعجب، وزعم أبو عبيدة إنها إيجاب، إلا أن الرماني لم يرضَ زعمه هذا، وعبّر عنه أنه ليس بشيء[٦].

وهكذا نرى أن الاستفهام القرآني تتعدد أغراضه مع تعدد الحاجة إليها، علاوةإلى غرضه الرئيس وهو طلب الفهم، لأمر يتعلق بشخص، أو بشيء ما، والعلم به.

بهذا يمكن القول بأن الاستفهام أسلوب لغوي من أساليبالخطاب، ذو بنية تركيبية بلاغية خاصة، منظّم تنظيماً داخلياًبمكوناته،يهدف من تفاعل هذه المكونات إلى طلب الإفهام تصوراً أو تصديقاً، يقصد به صاحبه معرفة ما يجهله حقيقة، أو مجازاً، إذاعلم صاحبه بجوابه، ولكنه يقصد به معنى آخر يفهم من السياق بعد التأمل في النص. وهو ما نراه في استعمال القرآن الكريم؛ لذا نجد أن ابن فارس يعبّر عن هذا الأسلوب بمصطلحين، أحدهما الاستخبار: وهو طلب ماليس عند المستخبر، وإذا تكرر الطلبفهو الاستفهام.ويَنسبُ ابن فارس إلى أناسٍ، أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق، قالوا: وذلك أنأولى الحالين الاستخبار، لأنك تستخبر فتُجاب بشيء ربما فهمته، وربما لم تفهمه،فإذا سألت ثانيةًفأنت مستفهم، تقول :افهمني ما قلته لي، قالوا: والدليل على ذلك أن الباري جل ثناؤه يُوصف بالخبر ولا يُوصف بالفهم.[٧]

لذا يقول الزركشي معلقاً على ذلك: ((ولكون الاستفهام طلب ما في الخارج، أو تحصيله في الذهن؛ لزم ألا يكون حقيقةً، إلا إذا صدر من شاكٍّ مصدّقٍ بإمكان الإعلام، فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل، وإذا لم يصدّق بإمكان الإعلام؛ انتفت فائدة الاستفهام))[٨]. وهذاتفريق مهم، وطريقة جيدة في التمييز بين استفهام الباري – ﷻ– واستفهام غيره. وعلى هذا تفسير قوله تعالى: (**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ**)البقرة:٢٨.فقد ذهب الراغب إلى أن : ((كيف هنا؛ استخبار لا استفهام، والفرق بينهما إن الاستخبار قد يكون تنبيهاً للمخاطب وتوبيخاً،ولا يقتضي عدم المستخبر، والاستفهام بخلاف ذلك))[٩]. وقال في(المفردات):((كل ما أخبر الله بلفظ "كيف" عن نفسه فهو إخبار على طريق التنبيه للمخاطب أو توبيخ؛ نحو: (كيف تكفرون)))[١٠].وقد ورد الاستفهام في معناه الحقيقي عندما كان على لسان الآخرين كما في قوله تعالى: (**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**)البقرة : ٦٨، وقوله تعالى:(**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**)الشعراء:٢٣.

ومع هذا وذاك، تكون عملية التركيب في أسلوب الاستفهام بحاجة إلى مقومات؛ قد تكون تركيبية تتكفل بها عملية الإسناد أو التخصيص، أو سياقيةكالتضام او الرتبة او التنغيم أو غيرها من العلاقات والقرائنالنحوية،

وعليه سيحاول البحث تسليط الضوء على ما اكتشفه من آثار في صيغة الدلالة الاستفهامية في النص القرآني، على وفق تلك القرائن، فتولّد هنا مبحثان:

الأول: دلالة الاستفهام والقرائن المعنوية :

إن للقرائن المعنويةأثراً واضحاً في بيان المعاني النحوية (الوظيفية) للمفردات التي تتركب منها الجملة، ولما كانت هناك علاقة واضحة بين المعاني النحوية والمعاني الأخر للتراكيب، نجد أن الاستفهام أسلوب نحوي، يعتمد كثيراً على قرينة الإسناد وقرينة الإضافة في معرفة وتحديد المعاني النحوية لأدواته، فعندما يريد النحاة معرفة القيمة الإعرابية أو النحوية للأدوات التي لها نصيب في الإعراب؛ يعتمدون على قرينة الإسناد في بيان ذلك، بينما نجدهم يهملون الإعراب في الهمزة و(هل)؛لعدم وجود وظيفة نحوية لهما. فمن تتبع الدرس النحوي القديم، يلاحظ إهمال النحاة لدور أدوات الاستفهام –خصوصاً الهمزة و(هل)– في تركيب وأسلوب الجملة؛ وذلك بحجةأنهما لا محلَّ لهما من الإعراب، إذ كان الإعراب همَّهم،ولكنهم راحوا يفتشون للأدوات المُحوّلة في الاستعمال الدلالي عن موقع إعرابي،يقدّرون أو يُظهرون عليه العلامة الإعرابية؛لأنها كانت غائبة في جلِّأدوات الاستفهام؛ لكونها مبنية،أماالأدوات المحولة من معانٍ أخرى إلى معنى الاستفهام، أخذ النحاة قديماً وحديثاً يبحثون لها عن موقع إعرابي أو معنى وظيفي داخل التركيب، ويُتعرّف على هذا المعنى الوظيفي عادة بالاستعانة بجملة الجواب التي غالباً ما يتطلبها أسلوب الاستفهام. ومن علمية التعويض في جملة الجواب تُعرف الوظيفة النحوية لتلك الأداة.

والمعروف عند النحاةأنأدوات الاستفهام المحولة كلّها مبنية، لا تظهر عليها العلامات الإعرابية ماعدا (أي) فإنها معربة، وإن ذهب بعضهم إلى أنها ((ليست باسم ولا محل لها من الإعراب. والأوْلى أن ينظر إليها على أنها من أدوات المعاني، وأما كونها تأخذ الفتحة تارة وأخرى تأخذ الضمة فلأنها تنطق على لهجات القبائل))[١١]، لكن هذا الباحث لم يقدم دليلاً واضحاً يثبت فيه ما قال. فإذا لم تكن العلامة الإعرابية حاضرة فلابد من وجود ما يدلّ على المعنى الوظيفي، فضلاً عن المعاني الأخرى المقصودة من الخطاب الاستفهامي.

وفي كلِّ الأحوال إن عدم ظهور العلامة الإعرابية؛ يستدعي قرائن وعلاقات أخرى؛ لمعرفة المعنى الوظيفي لهذه الأدوات، وحتى (أي) المعربة، تستدعي أحياناً قرائن أخر لمعرفة معانيها الوظيفية كالإسنادوالإضافة، فهي مثلا تُعرب مبتدأ إذا أسندتإلى فعلٍ لازم،أو الى فعلٍ متعدٍ لم ستوفِ مفعوله، أوتلتها جملةٌ اسمية، كما في قوله تعالى: **(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)**الكهف:١٢، وقوله تعالى: **(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)**الأنعام:١٩،وتعرب (أي) مفعولاً مطلقاً إذا أسندتإلى فعلِلازم وأضيفتإلىمصدر، كما في قوله تعالى: **(أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)**الشعراء: ٢٢٧، وهكذا نجد أن مواقعها الإعرابية تختلف بحسب الإسناد، وهي أيضاً تختص بأنها تكون دائماً مضافة إلى ما يحدد معناها الوظيفي،واحياناً معناها العام.

أما بقية أدوات الاستفهام المبنية، فيلعب الإسناد فيها دوراً مهماًلمعرفة معانيها النحوية، فمع غياب العلامة الإعرابية يكون الإسناد وغيره من القرائن، هي المبيّنة للمعاني الوظيفية التي لها علاقة في بيان الدلالة العامة المقصودة من لدن المبدع في خطابه القرآني.

فـ (من)و(ما) مثلا يتمتعان بقابلية التبادل في المعاني الإعرابية على الرغم من أن لهما حقٌّ في الرتبة المحفوظة– الصدارة في الكلام– وما يبيّن ذلك هو الإسناد، فإذا اسندا إلى فعلٍ متعدٍ استوفى مفعوله، فهما في محل رفع مبتدأ، وإذا اسندا إلى اسم معرفة؛ يكونان خبراً مقدماً، أو خبراً لكان ، والذي يميّز بينهما هو دلالتهما على العاقل، أو على غير العاقل، فـ (ما) تدلّ على غير العاقل، كما في قوله تعالى: **(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)**طه:١٧، وقد أجاز بعض النحاة ودارسو القرآن[١٢]،أن تكون للعاقل مستدلّين بقوله تعالى:**(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)**الشعراء:٢٣، إلاأن الزركشي لم يرتضِ هذا التوجيه، وقال:((إنما هو السؤال عن الصفة، لأن رب العالمين هو المالك، والملك صفة، ولهذا إجابة موسى عليه السلام بالصفات))[١٣]؛ لذا ذهب المبرد إلى إثبات دلالة جديدة لها، وهي دلالتها على المبهم حتى وإن كان عاقلاً، وذلك عندما تقوم الصفة مقام الموصوف.[١٤]

والواقع أن الاستفهام هنا جاء على لسان فرعون، وذلك انطلاقاً من عقيدته الفاسدة في عبادة الأصنام والشمس، فتوهم فرعون انه من نوعها، ويمكن أن يؤيد ذلك بأن (ما) ليس إلا لغير العاقل،كما هو في قوله تعالى: **(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)**الأنبياء:٩٨، فلو كانت (ما) للعاقل لدخل عيسى (عليه السلام) ضمن عموم هذه الآية، لأن هناك من عبده من دون الله.

أما بقية أدوات الاستفهام المحولة فالذي يبيّن وظيفتها النحوية؛ هو إسنادهاإلىما يدلّ عليها من الزمان والمكان والمقادير والحال، فمع قرينة الإسناد وقرائن أخرى معنوية ولفظية وسياقية تتبين لنا هذه المعاني، فتضافر القرائن هو الذي يبيّن المعاني الوظيفية، ومن ثم تفهم المعاني التي من اجلها وضع الاستفهام.

فلو نظرنا للآية التالية:**(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ)**التوبة:٧ ، نجد ان كيف الاستفهامية يمكن ان يكون لها معنيان وظيفيان، الأول: إذا كانت في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ فهي خبر مقدم لـ (يكون)، فهنا اعطىالاسنادُ للفعل الناقص اداةَ الاستفهام دلالةً تختلف عن دلالتها الأخرى، التي يمكن ان تكون في معنى وظيفي آخر وهو الحالية، إذا كان اسناد الملكية للمشركين في موقع الخبر[١٥]، فهنا كانت قرينة الاسناد للفعل واضحة الأثر في تقييم الدلالة التي جاء من أجلها الاستفهام.

الثاني: معاني الاستفهام والقرينة اللفظية:

عدّ الدكتور تمام حسان القرائن اللفظية من القرائن المقالية التي تُؤخذ من المقال، وهي عنده ثمان: العلامة الإعرابية والصيغة والرتبة والربط والمطابقة والأداة والتضام[١٦]، وفي كلامنا عن معاني الاستفهام نجد أن من القرائن اللفظية ما له دور كبير في بيان معاني أدوات الاستفهام الوظيفية التي لها اثر في المعاني الحقيقية والمجازية.

ولما كانت أدوات الاستفهام كلها مبنية باستثناء (أي)؛ فالعلامة الإعرابية لا تمثل قرينة يمكن الاعتماد عليها إلا في (أي)، وبالطبع إن العلامة وحدها غير كافية لمعرفة معاني (أي)،إذا لم تتضافر معها قرينة أخربكالإضافةمثلا؛ لأن (أي) لا يحدد معناها إلابما تضاف إليه من الأسماء والضمائر،فوجود العلامة الإعرابية؛ يكون عاملاً مساعداً لمعرفة موقع(أي) من الجملة، أما القرائن الأخر تكون أوفر حظّاً من العلامة الإعرابية في أسلوب الاستفهام، ومنها قرينة الرتبة والأداة والتضام والتنغيم؛ لذا سنتكلم عنها بشيء من التفصيل .

١-قرينةالرتبة:

تعني الرتبة علاقة بين جزأين من أجزاء الكلام والسياق، يدّل على موقع كلّ منها من الآخر على معناه[١٧]،وتعدُّ في الأدوات المبنية عاملاً معوضاً عن العلامة الإعرابية التي تكون ظاهرة في الأسماء المعربة،وللرتبة دورٌ مهم في تحديد معاني الاستفهام الوظيفية، ومن ثمّ المعاني الأخر التي يستبطنها الاستفهام، كالتوبيخ،والإقرار، والتهديد ... وغيرها، وأدوات الاستفهام تتمتع برتبة الصدارة في الكلام غالباً؛ لأنها تفرض على المتكلم نمطاً من الاستعمال لتداعي معنى الاستفهام في ذهنه فكأنه يريد الاستعجال بمعرفة الجواب من المتلقي.

ولكلِّ لفظة في التركيب قابلية معينة وصفة خاصة بها، ربما تجعلها مطلقة وتعطي المبدع حرية وضعها في مكانها الذي يقتضيه الذوق الفني بما لا يخالف النظام النحوي، ومنها ما يختص بالرتبة التي لا ينبغي لها أن تتقدم أو تتأخر عليها؛ لذا تساعد قرينة الرتبة على فهم المعاني النحوية.

وقد اختصت بعض أدوات الاستفهام بالصدارة المطلقة كهمزة الاستفهام، فهي تأتي سابقة للعطف، ولم يشترك معها غيرها في هذه الخاصية ((ومعنى كون الهمزة ذات صدارة مطلقة؛إنها لا يتقدم عليها أي عنصر آخر من عناصر الجملة حتى حرف العطف))[١٨]، كما في قوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)**طه:١٢٨، وفي قوله تعالى: **(أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)**البقرة : ١٠٠.

في حين نجد أن حروف العطف تتقدم على غير الهمزة من أدوات الاستفهام مثل (هل) التي تُعدّ من الأدواتالرئيسة في الاستفهام، كما في قوله تعالى: **(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)**المائدة: ٩١، وفي قوله تعالى: **(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)**الاحقاف: ٣٥، فصدارة (هل) لم تكن مطلقة،وكذا غيرها من أدوات الاستفهام، فلا يؤخر العاطف عن هذه الأدوات؛ لأنهاجزء من جملة الاستفهام، والعاطف لا يقدم عليه جزء من المعطوف، وتستثنى الهمزة، لأنها أصل أدوات الاستفهام، فتقدم على العاطف تنبيهاً على أصالتها في الاستفهام، والاستفهام له صدارة الرتبة في تراكيبه النصية.[١٩]

وربما يفيدنا هذا أن هناك معاني اختصت بها الهمزة لم يشاركها فيها غيرها، ومنها مثلاً قوة الاستفهام للمعنى المرتبط به، وهو الإنكار، فهي اشدُّ وقعاً صوتياً من (هل) لما فيها من القطع، كما أنها أكثر سعة في معاني

الاستفهام من (هل)،فكانت للاستفهام عن المفرد والنسبة، أما (هل) فلأنها استفهام عن النسبة فقط، ولا يستفهم بها عن المفرد؛ لذا يتقدم عليها العطف الذي هو من أسباباجتماع واشتراك النسبة بين المتعاطفين. وقد تكون(هل) ليست مختصة بالاستفهام، فهناك من يرى خروج معناها إلى التحقيق بمعنى(قد)، كما في قوله تعالى:(**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**)الإنسان:١[٢٠]. وذهب الزمخشري إلىأنها بمعنى (قد) أبداً، وان الاستفهام من همزة مقدرة معها، وقد تظهر هذه الهمزة أحياناً،إذ يقول: ((هل بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة والأصل (أهل) ... فالمعنى (أقد) أتى على التقرير والتقريب جميعاً أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب (حين من الدهر لم يكن) فيه شيئاً مذكوراً))[٢١]. وخالفه ابن هشام في ذلك،وعدّ رأيه مبالغة، إذ يقول:((وبالغ الزمخشري، فزعم أنها (يعني هل)أبداً بمعنى (قد) وان الاستفهام إنما هو مستفاد من همزة مقدرة معها))[٢٢]، أو عنده إنها تأتي بمعنى قد وذلك مع الفعل.وقد اعترض احد الباحثين على هذه الأقوال،وعدّ أن ((ذلك ما وقع الغلط فيه في فهم قوله تعالى في سورة الدهر، وهي قوله سبحانه: **(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)**. اعترض المعترضون هنا – جهلاً بحقيقة الحال– أن الاستفهام هاهنا إن قصد به الإنكار، كان خلاف المقصود من الآية في سوق إيجاب هذا المعنى لا سلبه ، وإن قصد بها الإثبات على أن تكون (هل) بمعنى (قد) – كما ادعاه بعض المفسرين – فليس هناك شاهد من كلام العرب يثبت مجيء (هل) بمعنى(قد)))[٢٣].

والباحث يذهب الى ان الاستفهام هنا استفهام تقريريوهوخطاب موجَّهإلىغيرمعين، ويراد منهتحقيقالأمرالمقرربهوالمعروف لدى جميع المخاطبين وفي كل الازمنة، ذلك المعنى الذي تستبطنه (ال) الاستغراقية في كلمة (الأنسان)،وعن طريقالاسلوب الكنائي؛لكي تنسجم دلالة الاستفهام (طلبالفهم)،مع التقرير الذي يقتضي حصول العلمبماقرربه،وتقديمهذاالاستفهامفيهتشويقإلىمعرفةمايأتيبعدهمنالكلام؛ لأن المخاطب يستشعر ان هناك اخبار سيأتي بعد هذه الوقفة الاستهلالية. فكانت جملة **هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِن َالدَّهْر ِلَم ْيَكُن ْشَيْئًا مَذْكُورًا)** تُعد تمهيداً وتوطئة للجملة التي بعدها وهي **(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)** (الإنسان : ٢) ، فلا معنى ان الاستفهام في(هل) تكتسبه الجملة من همزة محذوفة، فاذا ورد في استعمال العرب انها مقترنة مع الهمزة في الاستفهام فهو من قبيل المبالغة في شدة هذا الاستفهام، وهذا لا يعني انها تكتسب دلالتها على طلب الفهم من همزة محذوفة.فيمكن القول ان (هل) حرف يفيد الاستفهام والتحقيق في الجمل الانشائية، أما(قد) فتفيد التحقيق في الجمل الخبرية.

ومن الفوائد النحوية والدلالية التي تتركها الرتبة، أن اسم الاستفهام يحتفظ بوظيفته النحوية حتى وان تقدم عليه ما يمكن أن يؤثّر فيه من جهة دلالة الفاعلية والمفعولية، وهذا ما نراه في قوله تعالى: **(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)**طه:٧١، فاحتفظت(أي) بمعناها النحوي وهو الابتداء على الرغم من عدم صدارتها في الكلام من جهة لفظية فعلاً، لكن رتبتها الدلالية ظلت محفوظة.

ومن آثار الرتبة التي تتمتع بها أدوات الاستفهام،أنها تجعل ما يتصل بها تركيباً متقدماً على العامل النحوي الذي من حقِّه التقدم، كما في قوله تعالى: **(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)**النبأ :١، وقوله تعالى: **(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)**الطارق

:٥. فـ (عن) و(من) المدغمتان مع أداة الاستفهام متعلقتان بالفعلين؛ فهما معمولان لهما؛ لكنهما تقدما عليهما. فرتبة المعنى الاستفهامي تغلبت على رتبة المعنى الوظيفي.

واتضح دور الرتبة المحفوظة في دلالة (أي) الوظيفية في قوله تعالى: **(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)**الشعراء:٢٢٧، فـ(أي) جاءت منصوبة ليس بالفعل يعلم؛ بل لأنها صفة مصدر محذوف، وتقديره سيعلم الذين ظلموا انقلابا أي انقلاب ينقلبون. ولا يجوز أن يكون معمول (سيعلم)بل أن (أياً) مفعول مطلق للفعل (ينقلبون)؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنما يعمل فيه ما بعده. ومجموع الجملة الفعلية في محل نصب بفعل العلم[٢٤].وذكروا أن السبب في ذلك الاستخبار قبل الخبر، ورتبة الاستخبار التقديم، فلا يجوز أن يعمل فيه الخبر، لأن الخبر بعده، وذلك أنه موضوع على أنه جواب مستخبر[٢٥]. لأن أدوات الاستفهام اذا كانت اسماً امتنعت مما قبلها، كما يمتنع ما بعد الهمزة من أن يعمل فيه ما قبله، وهذا جاء من رتبة التقدم لها[٢٦].

٢- قرينة الأداة

للاستفهام أدواتيشترك فيها مع الأساليب اللغوية الأخرى، فتُحوّل هذه الأدواتإلى الاستفهام، وتُعرف من خلال السياق أو القرائن الأخرى، مثل (من) و(ما)و(أين) (ومتى)و(أيان)و(كيف)و(أي)و(أنى)،فهذه الأدوات مشتركة الاستعمال بين الاستفهام والشرط والأسماء الموصولة وغيرها من الأساليب، ولكن هناك أداتين ربما تكونان مختصتان بالاستفهام وهما الهمزة و(هل)،وهذه الأدوات يستفهم بها عن مفرد أو نسبة، وحين تدخل على التركيب تغير صيغته من الخبر إلىالإنشاء الذي يراد به الاستفهام أو الاستخبار[٢٧].

ولكلّ واحدة من هذه الأدوات معانٍ جديدة تؤدّيها علاوة على معناها الاستفهامي.فالهمزة مثلاً تكون للتقرير، نحو قوله تعالى: **(قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)**الأنبياء:٦٢،فالمعنى الذي عرضه أسلوب الاستفهام هنا،أن يقرّ إبراهيم بالفعل، وليس القصد هو الاستفهام عن أصل الفعل؛ لأنه واقع فعلاً، ومعلوم لدى الجميع.

وتستعملأيضاللإنكار كما في قوله تعالى: **(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)**الإسراء:٤٠،فالمعنى(الاصطفاء بالبنين) هنا يُراد أنكاره، وأثبات مقابله،وغيرها من الأغراضالأخرى[٢٨].

أما (هل) فيستفهم فيها عن النسبة في الجملة الفعلية والجملة الاسمية، ولا يستفهم بها عن المفرد، فلا يقال: هل زيداً ضربت؟، ولا يستفهم بها عن جملة الشرط، ولا عن جملة مصدرة بأن في التوكيد ولا عن اسم بعد فعل.[٢٩]كما في قوله تعالى:**(هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)**الأنعام:٤٧. وقوله تعالى: **(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)**الرحمن:٦٠، فهذه معان استفهامية أنفردت بها (هل)، ولايمكن للأدوات الأخرى أن تقوم مقامها في دلالتها المتمحّضة في الأسلوب الطلبي؛ لأنها أداة استفهام فحسب.

٣- قرينة التضام :

التضامّ قرينة لفظيّة تعني التلازم بين بعض المفردات الكلاميقتضيه المعنى السياقي للتركيب، فلا يصل المعنى إلا بوجود صيغتين معينتين، كما هي الحال في الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر وغيرها من المتلازمات التركيبية.(٣٠) وممّا هو لافت حقاً أن يتنبه القدماء إلى هذا النوع من التضامّ في صيغة التركيب الاستفهامي، وذلك بالقول أن أدوات الاستفهام – باستثناء الهمزة – تتضام مع الفعل ولا تتضام مع الاسم إلا لضرورة الشعر، وهو ما ذهب إليه سيبويه،إذ عدّ دخول أدوات الاستفهام على الاسم مع وجود الفعل لغةً قبيحةً، وإذا حدث ذلك فعلى تقدير حذف الفعل؛ لأنّ أدوات الاستفهام تضارع أدوات الجزاء في ذلك، كما في قوله تعالى: **(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)**التوبة:٦(٣١). فدخول إن الشرطية على الاسم مع وجود الفعل يقتضي تقدير فعل محذوف، ويلاحظ على هذا الرأي هو الاهتمام بالمعنى الأعرابي؛ إلا أنه من جهة بلاغية كان تقديم(أحد) على(استجارك)للاهتمامبالمسندإليه،ليكونأولمايقرعالسمعفيقعالمسندبعدذلكمننفسالسامعموقعالتمكن. فهنا نذهب الى ان تقديم الفاعل جاء لغرض عند المبدع، فيبقى العامل فيه هو الفعل المتأخر، فيعلمأنّالفاعلمقدّممنتأخيرلغرض ما . ولذلكشاععندالنحاةأنّهفاعلبفعلمقدر؛ لأنه خالف منظومتهم النحوية،فهوتقديراعتبارٍ، ولا يستدعي ذلك تقدير فعل محذوف على وجه الحقيقة.

والاستفهام في بعض معانيه يوجب ضمّ بعض المفردات إلىأدواته؛ للوصول إلى تلك المعاني كما في (أم) المعادلة مع الهمزة في معنى التسوية بين أمرين مردّد بينهما، كما في قوله تعالى: **(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)**الواقعة:٥٩، وربما يستغنى عن الهمزة و يُكتفى بما تضامّ معها إذا أمن اللبس، فوجود(أم) التي ليست للاستفهام،بل هي من أدوات العطف كما هو معلوم؛ دلّ على وجود الهمزة المقدرة (ذهنياً)،كما في قوله تعالى: **(أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ؟)**الطور:٣٩. وهذا المعنى الاستفهامي الذي لا لبس فيه عرف من تضامها(أم)أو تلازمها مع الهمزة. والذي أعان (أم) في بيان دلالة الاستفهام هنا هو التنغيم كما سيتضح قريباً.

وربما تخرج الهمزة مع الاستفهام إلى معانٍأخرى، كالتقرير والتحقيق أذا تضامّت معها بعض أدوات النفي مثل (ما)و(لم) و(ليس)،نحو قوله تعالى: **(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)**الحديد:١٦، وقوله تعالى: **(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)**التين:٨، فالنفي المتحقق من أدواته مع الاستفهام يفيد الإيجابوالإثبات، ومن معاني الإثبات: التحقيق والتقرير، فإذا دخل الاستفهام على النفي صار الكلام موجباً؛ ولذا يُعطف عليه الموجب الصريح، ويُعطف هو على الموجب الصريح، ومنه قوله تعالى: **(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)**الفيل:٢، فنحن نرى أن القرآن انتقل من معنى الأخبارإلى الاستفهام، فكان بالإمكانأن يكون الكلام إخباراً؛ ولكنه حَمَل المخاطب على التدبّر والتأمّل،(٣٢) وهو من أسرارإعجاز القرآن الكريم؛ لأن الاستقراء يفيدنا أن معظم الاستعمالات التركيبية التي خرجت إليها الهمزة من الاستفهام إلى غيرها من المعاني تدلّ على أن المتكلم عالم بالأمر المُستفهِم عنه.

وقد تتضام (هل) مع (إلا) الاستثنائية لتفيد معنى النفي فتنتج لنا معادلة هي :

استفهام + استثناء = نفي

كما في قوله تعالى: **(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)**الرحمن:٦٠؛ أي ما جزاء الإحسانإلاالإحسان، أو ليس جزاء الإحسانإلاالإحسان، وهي محولة من معنى الثبوت وهو (جزاء الإحسانالإحسان)،ولكن معنى النفي المتحقق من الاستفهام والاستثناء؛أكثر ثبوتا وتأثيرا في نفس المخاطب وإشراكه مع المتكلم في مواجهة المعنى، ويعطي معنى العتب للذين يحسن إليهم ولا يحسنون،أوأنهم يسيئون لمن أحسن إليهم، وهذا بسبب وجود (هل) التي تستدعي الجواب، إماباالإيجابأو بالنفي فيكون المخاطب مضطرا إلى توضيح المعنى ويبين موقفه[٣٣]، فتضام (هل) مع (إلا) أعطى بعدا جديدا لمعنى الاستفهام وهو الإقرار من المخاطب.

وتتضام (هل) أيضا مع الفعل المضارع فتخصص معناه بالاستقبال دون الحال، بخلاف الهمزة ، نحو قوله تعالى: **(هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)**الأنعام:٤٧، وذكرابن هشام أن(هل) مع الفعل بصورة عامة تكون بمعنى(قد)[٣٤]،ولكن هذا ليس مطرداً، ولاسيما إذا تضامت مع(إلا) كما في الآية السابقة. فإنها لم تكن بمعنى التحقيق هنا، بل جاءت بمعنى الإنكار أي : لا يهلك الا القوم الظالمون.

وتتضامّ (هل) مع(أو) في الاستفهام بين شيئين مرددين؛ لأنها تأتي للتصور فقط، ففي كل الأحول لا تحتاج إلى ما يخرجها إلى معنى آخر الذي تحققه: **(هَلْيَنْظُرُونَإِلَّاأَنْتَأْتِيَهُمُالْمَلَائِكَةُأَوْيَأْتِيَرَبُّكَأَوْيَأْتِيَبَعْضُآيَاتِرَبِّكَ)** (الانعام:١٥٨)، فالانتظار متصور على كل حال فوقوعه لا يصل في ذهن المخاطبين الى التصديق به.وكذا في قوله تعالى : **(هَلْتُحِسُّمِنْهُمْمِنْأَحَدٍأَوْتَسْمَعُلَهُمْرِكْزًا)**(مريم:٩٨)، فلم يكن التصديق حاضرا في دلالة الجملة الاستفهامية هنا، فلا الإحساس متحقق ولا سماع صوتهم الخفي.

ولاتتضامّمع (أم) المعادلةإلا إذا تكررت؛ و يتضح هذا جلياً في قوله تعالى : **(هَلْيَسْتَوِيالْأَعْمَىوَالْبَصِيرُأَمْهَلْتَسْتَوِيالظُّلُمَاتُوَالنُّورُ)**(الرعد:١٦)؛ إذ تكررت (هل) مع (أم) عندما أريد تحقيق دلالة التصديق من الاستفهام في عدم استواء العمى مع البصير،فتضامّ (أم) مع (هل)وتكرارها؛ أفادها معنى لم يكن قد وضعت له وهو التصديق.

أما الهمزة فتأتي للتصور والتصديق،وتضامها مع (أم) يعطي معنى التصديق[٣٥]. ففي قوله تعالى:**(قُلْهَلْمِنْشُرَكَائِكُمْمَنْيَهْدِيإِلَىالْحَقِّقُلِاللَّهُيَهْدِيلِلْحَقِّأَفَمَنْيَهْدِيإِلَىالْحَقِّأَحَقُّأَنْيُتَّبَعَأَمَّنْلَايَهِدِّيإِلَّاأَنْيُهْدَىفَمَالَكُمْكَيْفَتَحْكُمُونَ**)(يونس:٣٥)، نلاحظ إن الاستفهام بـ(هل) أفاد إنكاراً لعدم إمكانية المشركين من الهداية وتقريراًبإنكارذلك،إذليسالمتكلمبطالبللجوابولايسع المخاطبإلاالاعترافبنفيأنيكونمنآلهتهممنيبدأالخلقثميعيده،فلذلكجاء الأمربتثبيت الصادق من القول فيالاستدلالبقوله: **(قل اللّهُيبدأالخلقثميعيده)**، وقد اتضح ذلك في الاستفهام التالي بالهمزة مع وجود أم التي تمحضّت معها دلالة الهمزة الى التصديق باتباع الذي يهدي الى الحق، وهو الله تعالى دون الذوات التي كانت تُعبد من دونه.

وتتضام (من) و(ما) مع اسم الإشارة (ذا) فأنها تفيد التنصيص على الاستفهام إذا احتمل من الكلام للاستفهام وغيره، وذلك في قوله تعالى:**(فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)**لقمان:١١، فان (ذا) أفادت التنصيص على الاستفهام، ولو حذفت لأحتمل المعنى الاستفهاموالموصولية،

فيكون المعنى أروني الذي خلقه الذين من دونه[٣٦]، وكذا نرى في استعمالات القرآن الكريم انه يستعمل (ما) بدون (ذا)، ومرة يستعملها مع (ذا)، كما في قوله في سورة الشعراء: (ما تعبدون) وفي الصافات: (ماذا تعبدون)، وذلك في قوله تعالى: **(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا آَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۞فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)**الصافات:٨٥-٨٧، وفي سورة الشعراء: **(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)**الشعراء:٧٠- ٧١، فلماذا الاختلاف في قصة إبراهيم في سورة الصافات عن سورة الشعراء؟.ففي (ماذا) يكون الاستفهام أقوى؛ لأن إبراهيم لم يكن ينتظر جواباً من قومه فجاءت الآية التي بعدها **(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)**الصافات:٨٧، أما في سورة الشعراء، فالسياق سياق حوار؛ فجاء الرد **(قالوا نعبد أصناما)**. إذن (من ذا) و(ماذا) أقوى من (من)و(ما) وذلك لزيادة المبنى الذي يقول النحاة انه يؤدي لزيادة المعنى[٣٧] .وربما أوحى هذا إلى بعض الباحثين أن يعدّ (ماذا) أداة استفهام مستقلة، وليست مركبة من أداة استفهام وأسم إشارة. بل هما((كتلة لغوية واحدة، وليست (ما + ذا)، ولا علاقة لها بما الاستفهامية، زيادة على أنهما من باب نحوي واحد، هو الاستفهام، وأنها ليست باسم ولا علاقة لها بالاسمية، فهي عنصر استفهام ليس غير))[٣٨] وهو واضح في المخالفة لما ذهب اليه المشهور في رأي النحاة.

وقد يتضام الاستفهام مع النفي فيعطي معنى الإثبات فتكون المحصلة :

استفهام + نفي = إثبات

كما في قوله تعالى: **(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى)**الضحى:٦ فتحولت الدلالة فيه من نفي إلى تقرير الإثبات، وهو تحول يضفي شيئاً من الحيوية على النسيج النصي يدركها المتلقي دلالة واضحة، تغيّر فيها كلام المخاطب إلى تعزيز هوية المتلقي باستعمال ضمائر المخاطب (الكاف) إلى ضمير الغائب المستتر (هو) ، فكانت النتيجة مثبتة لحقائق مهمة؛ بسبب هذا التضام بين أسلوبين من أساليبالإنشاء العربي.

وهكذا نجد أن قرينة التضام لها دور مهم في توضيح معاني الاستفهام في كثير من أدواته .

٤- قرينة التنغيم

التنغيم من القرائن المهمة في إثبات المعنى والدلالة في العبارات والنصوص ويعرف بأنه((الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق))[٣٩]. ولا ريب إنالإطار الذي توضع فيه الجمل له دور في تحديد معانيها الوظيفية، وكذلك يدل على معانيها المتوخاة من التأليف النحوي، فالنسق النغمي الذي توضع فيه جملة الإنشاء – ومنه الاستفهام- يختلف عن النسق النغمي الذي توضع فيه جملة الأخبار،والتأكيد، فهو يبين المعنى في طلب الفهم، وهذا ما لا يختلف عليه اثنان، وربما إن التنغيم أصبحأمراًطبيعياً عند أكثر الناس في الاستفهام من حيث لا يشعرون، وقد نجد ذلك في القراءات القرآنية التعبيرية عند إرادةإيصال المعاني التي من اجلها جاء الاستفهام، وفي الحقيقة إن النغمة مع الاستفهام تعد أمراً ضرورياً، ويعد إهمالهاأحياناً عيباً في الكلام، وتتفاوت أدوات الاستفهام في مستوى التنغيم تبعاً لقوة النبر، وطول الحروف ولينها ومخارجها الصوتية المختلفة، فالنغمة

مع الاستفهام بالهمزة و(هل)؛ اشد منه من النغمة مع سائر أدوات الاستفهام (أيان وأنى ومتى) لما فيها من حروف المد التي تخفف من شدة النبر كما في قوله تعالى: **(أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)**الواقعة:٦٤ .

وقد يستغنى عن الهمزة بوجود (أم) المعادلة كما في قوله تعالى: **(أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)**الطور:٣٩، فهنا حذفت الهمزة ودلّت عليها (أم) المعادلة، وهنا يبرز دور التنغيم في معرفة معنى الاستفهام .

وكذا يظهر دور التنغيم في أدواتأخرى لم تكن للاستفهام، ولكن مع التنغيم يفهم منها الاستفهام كما نجد في أدوات التحضيض وهو طلب الشيء بحث وإزعاج[٤٠]، ومن أدواته (لولا) و (لو ما) وهلا)ويبدو أنالأخيرة هي الأصل في التحضيض كما في قوله تعالى **(لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)**الحجر:٧، فهو لا يدل على الطلب بحث إلا مع وجود النغمة المعبرة عن الدلالة .

وهذا يجري في الكلام المنطوق، أما في المكتوب فقد عُوض التنغيم بعلامة الاستفهام، وهي علامة رمزية توضع في نهاية الجملة الاستفهامية، ويرى الدكتور تمام حسان إن التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة[٤١]، وأظن أنهما ربما يتساويا في ذلك، ولاسيما أن أغلب النصوص التي بين أيدينا مكتوبة، والتنغيم يكون في زمن النطق فلا يوجد له أثر إلا علاماته وملازماته الكتابية ومنها علامة الاستفهام، التي لها دور مهم في بيان الدلالة وخصوصاً عندما تحذف بعض أدوات الاستفهام. فغياب عنصر الأداة يعوّض بما يسد غيابه من عناصر استفهامية اصالة؛ لأن كل عنصر من عناصر الاستفهام له دور في بيان المعنى، والتنغيم يعد عنصراً استفهامياً رائداً ولاسيما في اللغة المنطوقة،فيقوم مقام ما حذف من العناصر الأخرى، كما في قوله تعالى: **(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)**البقرة:١٢٤، فقراءة الآية بنغمة تدل على الاستفهام في قول(ومن ذريتي؟) تعني أن هناك استفهاماً من ابراهيم بلا أداة، يجاب عليه بقوله:**(لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)**، ونظهر هذا بأدوات الترقيم التي تعيننا في المقام ؛ لأننا نتعامل مع لغة مكتوبة **(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.)**.

وهذا يستدعي أن ندعو قرّاء القرآن الكريم إلى الاعتناء بالتنغيم، فأنه أكثر تأثيراً في نفس السامع، وأشد إظهاراً للدلالة؛ وذلك في آيات الوعد والوعيد؛فإنها تعطي بعدا دلالياً ربما يوضح هذه المعاني التي من أجلها نزل القرآن؛ إذ تجعل المتلقي يعيش حالات التصور الذهني فكأنه يرى النار فيخشاها، أو ينظر للجنة فيشتاق إليها، وفي ضوء ذلك يتحرك لترك ما يدخله النار، وفعل مايدخله الجنة.

٥- قرينة السياق المقامي

ونقصد به السياق الخارجي، ولاريب إن السياق الخارجي أو المقامي، له الأثر الواضح في تحديد دلالة كثير من الأساليب وهو يعني: ((مجموعة العناصر غير اللغوية المتصلة بالكلام منها المتكلم وما يتصل به، والمخاطب وما يتصل به، وزمان الخطاب ومكانه، والإطار الثقافي والسياسي والحضاري للنص))[٤٢]. فهذه الأمور المذكورة في التعريف لها الأثر في فهم الدلالة ومنها دلالة الاستفهام في القرآن.

فنجد مثلا بسبب قوة الطلب في مقام معين؛ يستدعي الإطالة في الكلام، وفي غيرها لا يستدعي ذلك، ففي آيتين فيهما نفس المفردات؛ نجد القرآن يستعمل في احدهما الاستفهام، ولا يستعمله مع الأخرى، كما في قوله تعالى: **(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)**الأعراف: ١١٣، وفي قوله تعالى:**(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)**الشعراء:٤١، فاستعمل الاستفهام في الآية الثانية؛ لأنالمقام مقام إطالة ومبالغة،فذكْرُ الهمزة في سورة الشعراء هو المناسب لسياقها بين الآياتالأخرى، وحذْفُها في سورة الأعراف هو المناسب لسياقها، فسياق الشعراء سياق إطالةوتحدٍّ ومحاجة ومبالغة في الخصومة أكثر مما هو في الأعراف، فرصد لكلّ سياق ماينا سبه من الألفاظ[٤٣]. وقد أتضح هذا تماماً من سياق الجواب الذي تحكيه الآية التي بعد آية الأعراف **(قَالَنَعَمْوَإِنَّكُمْلَمِنَالْمُقَرَّبِينَ)**(الأعراف:١١٤)، فلم تكن في الجواب كلمة (إذاً) التي نراها في جواب الاستفهام في سورة الشعراء زيادةعلىمااقتضاهحرف (نعم) منتقريراستفهامهمعنالأجر .**(قَالَنَعَمْوَإِنَّكُمْإِذًالَمِنَالْمُقَرَّبِينَ)**(الشعراء:٤٢)فتقديرالكلام : إنكنتمغالبينإذاًإنكملمنالمقربين. وهذاوقعالاستغناءعنهفيسورةالأعرافلهوزيادتهفيحكايةالقصةهنا؛ لأن السؤال أقتضى إجابة تساويه، في حين الإخبار في آية الأعراف لم يحتج هذه الزيادة في الجواب . وهذاشأن الخطابالقرآنيفيقصصهأنلايخلوالمكرر منهاعنفائدةغيرمذكورةفيموضعآخرمنه،تجديداًلنشاط ذهن المتلقي. أو ألفاتاً الى أن القضية تكررت في موضعين مختلفين؛ أقتضى سياق أحدهما الاستفهام ولم يقتضه سياق الأخرى.

ونجد ذلك في بيان الفرق بين (هل) والهمزة منجهة قوة الاستفهام وشدته، فان (هل) أقوى وآكد من الهمزة، ويدل على ذلك اقترانها بـ(من) الزائدة المؤكدة الدالة على الاستغراق نحو**(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)**القمر:١٧بخلاف الهمزة فإنها لا تقترن بها، وقد أُستعملت كلتا الأداتين مع الفعل (نبأ)، كما في قوله تعالى: **(قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)**الحج:٧٢. وقال: **(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ)** المائدة:٦٠. وعند النظر إلى الاستعمالين، نرى(هل) أقوى وآكد في الاستفهام من الهمزة ، وذلك يتضح من السياق[٤٤].

ونرى ذلك مع (من) بعد تضامها مع (ذا) فنجد أنها قد تقترن بهاء التنبيه، وقد لاتقترن بها أصلاً، ففي قوله تعالى: **(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)** البقرة:٢٥٥ فلم يجيء بهاء التنبيه؛ لأن الذين يدّعونأمتلاك الشفاعة لم يكونوا بالكثرة التي تستدعي التنبيه، أما في قوله تعالى: **(أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۞ أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)**الملك:٢٠ -٢١، فإن التحدي في الآيتينالأخيرتين أشد وأقوى وهو واضح من السياق،فالآيةالأولى فيها خطاب للمؤمنين والثانية فيها خطاب للكفار، وكذا نرى في قوله تعالى:**(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۞ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)**آل عمران: ١٥٩ - ١٦٠، وقوله تعالى في سياق التخويف:**(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ۞أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ۞وَلَقَدْ**

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۞ أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)الملك:١٦-٢٠، فالسياق مختلف في الآيتين، فالأولى في مقام الرحمة والمغفرة، والثانية في مقام الترهيب والإنذار، فجاء بهاء التنبيه؛ لزيادة التحذير، وهومايقتضيهالسياق والمقام[٤٥].

النتائج:

وأخيرا توصل البحث إلى النتائج التالية:

١- إن القرآن الكريم استعمل أسلوب الاستفهام بوضوح وبكثرة وهو أسلوب مهم لإثارة المعاني وتنبيه المخاطبين من المؤمنين والمشركين وكافة الناس وبكل طبقاتهم لا لطلب الفهم بل لإيصال المراد الإلهي.

٢- القرائن النحوية والسياقية والمقامية لها الدور الواضح في إظهار هذه المعاني القرآنية المكتنزة في آيات الكتاب التي جاءت بأسلوب الاستفهام ، وقد اتضح هذا جلياً في كشف المعاني التي تطرق لها البحث.

٣- لا يمكن للأدوات النحوية بمفردها أن تؤدى الدلالة النحوية فضلاً عن الدلالات الأخرى المقصودة من لدن منشئ النص القرآني، فهي بحاجة إلى تضافر القرائن المساعدة التي لا تظهر بوساطة التركيب بل يعين عليها السياق، كالاستناد والتنغيم والمقام.

٤- وقد اكتشف البحث أن هناك تفاوتاً بين أدوات الاستفهام من جهة قوة الاستفهام وشدته وضعفه لذا استعمل القرآن كل أداة في موضعها ومكانها المناسب.

كما أن هناك بعض النتائج التي يمكن معرفتها من قراءة البحث قراءة متأنية.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش

١- ظ اللغة العربية معناها ومبناها:١٧٧ وما بعدها
٢- دلائل الإعجاز: ٤١٠
٣- المصدر نفسه
٤- مغني اللبيب ١: ١٣
٥- ظ البحث النحوي في كتاب مجاز القرآن:٩٦
٦- ظ: معاني الحروف:٣٢ -٣٣
٧- الصاحبي في فقه اللغة :٤٣
٨- البرهان في علوم القرآن ٤ :٣٣٠
٩- أسلوبا النفي والاستفهام في العربية:٣٨
١٠- البرهان في علوم القرآن ٤ :٣٣٠
١١- المفردات في غريب القرآن:٤٤٤

١٢- ينظر مثلاً معاني القرآن للفراء ١: ١٠٢
١٣- ١البرهان في علوم القرآن ٤ :٤٠٣
١٤- ظ: المقتضب للمبرد٢ :٢٩٦
١٥- ظ : أعراب القرآن الكريم وبيانه ٣ : ١٨٤
١٦- اللغة العربية معناها ومبناها :٢٠٥
١٧- المصدر نفسه :٢٠٩
١٨- الخلاصة النحوية:٨٤
١٩- ظ: البرهان في علوم القرآن ٤:٤٠٣
٢٠- ظ: في النحو العربي نقد وتوجيه :٢٩٢
٢١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل ٤: ١٩٤
٢٢- مغني اللبيب ٢ :٣٥١
٢٣- القرآن والعقيدة:١٨٠
٢٤- ظ: مغني اللبيب٢: ٤١٧
٢٥- ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن٧: ٣٥٨
٢٦- ظ: معاني النحو ٤ :٢٠٧
٢٧- ظ: البحث النحوي في كتاب مجاز القران :٩٦
٢٨- ظ في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٨٧- ٢٨٨
٢٩- ظ المصدر نفسه
٣٠- ظ اللغة العربية معناها ومبناها :٢١٧
٣١- ظ: الكتاب ١ : ٩٨- ٩٩
٣٢- ظ معاني النحو ٤ : ٢٠٤
٣٣- ظ معاني النحو ٤ :٢٠٩
٣٤- مغني اللبيب ١ : ١٣
٣٥- ظ معاني النحو ٤ :٢١٦
٣٦- المصدر نفسه ٤: ٢٢٦
٣٧- المصدر نفسه ٤ :٢٢٧
٣٨- أسلوبا النفي والاستفهام في العربية:٣٤
٣٩- اللغة العربية معناها ومبناها :٢٢٦
٤٠- مغني اللبيب ١ : ٣٧٤
٤١- اللغة العربية معناها ومبناها :٢٢٦
٤٢- تحويلات الطلب ومحددات الدلالة :٢٨٥

٤٣- ظ معاني النحو ٤: ٢٠٥

٤٤- المصدر نفسه ٤ :٢١٤

٤٥- المصدر نفسه ٤: ٢٣٠

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. أسلوبا النفي والاستفهام في العربية.د. خليل أحمد عمايرة. دراسات في ضوء علم اللغة المعاصر ،د.طود.ت

٢. أعراب القرآن الكريم وبيانه ، تأليف محي الدين الدرويش، دار الإرشاد للشؤون الجامعية،حمص، سوريا، الطبعة السابعة – ١٩٩٩م

٣. البحث النحوي في كتاب مجاز القران لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تأليف الدكتور عبد الكاظم محسن الياسري ، د، ط ود. ت

٤. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، ت محمد ابو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشراكؤه ط/١ ، ١٣٧٦هـ-١٩٥٨م

٥. تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، د. حسام احمد قاسم ،ط/١ دار الآفاق العربية، القاهرة ، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧ م

٦. الخلاصة النحوية، تأليف الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥ م

٧. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، المؤسسة السعودية بمصر –القاهرة ، ط/٣ ،١٤١٣هـ

٨. الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد بن فارس، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، لبنان ط:١ – ١٩٩٣م

٩. في النحو العربي نقد وتوجيه ،الدكتور مهدي المخزومي ط/٢ بغداد ،٢٠٠٥م

١٠. القرآن والعقيدة ، مسلم الحلي د.طود.ت

١١. كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ سيبويه ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار التاريخ بيروت – لبنان د. ت

١٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تأليف ابي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ – ٥٣٨ هـ)الطبعة الأخيرة شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي واولاده بمصر ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦ م

١٣. اللغة العربية معناها ومبناها ، د، تمام حسان عالم الكتب – القاهرة ط/ ٤ ،٢٠٠٤ م-١٤٢٥ هـ

١٤. مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ الطبرسي(ت٥٤٨)، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، الطبعة: الأولى: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.
١٥. معاني الحروف ، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي (٢٩٦ - ٢٨٤ هـ)، حققه الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، جدة المملكة العربية السعودية ، ط/٣، ١٤٠٤ هـ
١٦. معاني القرآن ، الفراء، ت: محمد النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥م
١٧. معاني النحو ، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان - الأردن الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م- ١٤٢٣هـ
١٨. مغني اللبيب في كتب الاعاريب، أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري المصري (ت٧٦١هـ) ،ت محي الدين عبد الحميد، قم ، ايران ، ١٤٠٤هـ
١٩. المفردات في غريب القران ، تأليف أبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الاصفهاني (ت٥٠٢هـ) ، د.ت
٢٠. المقتضب المبرد، ت، محمد عبد الخالق عظيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٨٨هـ.